ارتفاع الصليب

سير منسوب الى القديس كيرلس اسقف اورشليم
٣١٣-٣٨٧م

نشره لاول مرة ، وعلق عليه
المتوري بولس قرألي ، مدير المجلة البطريركية

٥

البحث الثاني

الاعتراضات (تابع)

١١ ــ نقد النص (تابع)

٢ ــ تطبيق الاساطير على الميمر

ولنفرض تلفيق الاساطير السريانية وخطأها في معلوماتها الرئيسية. فهل يجوز ان تطبق على ميمرنا الاعتراضات الموجهة اليها ؟ او بالاحرى هل يجوز القول بان معلومات ميمرنا مستقاة منها ، وانه لذلك احدث عهداً واقل ثقة وقيمة ؟ للاجابة على هذه الاسئلة لا بدّ لنا من تلخيص رواية ميمرنا عن اكتشاف القبر والصليب ومقابلتها على رواية الاساطير لنثبت اولاً انه لا يتناقض مع مؤرخي ذاك العهد . ثانياً انه لا يتناقض مع نفسه . ثالثاً ان روايته مستقلة عن رواية الاساطير . واليك خلاصة روايته :

اولاً : لما استتب الامر لقسطنطين واصبح امبراطور رومية ، رغب في زيارة الاماكن المقدسة والبحث عن عود الصليب ، الذي خوّله النصر وصار شارة مملكته ومجده . فقصد الى اورشليم برفقة والدته هيلانة وزوجته وشقيقته العذراء (صفحة ٢٣٤).

كل هذا معقول ومختلف عن الاساطير ، التي تدعي ان الملكة هيلانة

سافرت برفقة اوسابيوس اسقف رومية لا برفقة ابنها قسطنطين.

ثانياً : سأل الملك اليهود عن مكان القبر فأحضروا له سبعة من علمائهم ادّعوا الجهل. وقد ذكر الميمر اسماءهم واحداً واحداً. فطرحهم الملك في جبّ لا ماء فيه ومنع عنهم الاكل والشرب الى ان يُدلوا اليه بمعلوماتهم. فأسرّ اليهم احدُهم يهوذا « انه يعلم من والده سمعان، نقلاً عن جدّه يهوذا (وفي الاساطير « زكي »)، بان اجدادهم اساؤوا الى المسيح في حياته وطمروا قبره بالزبالات بعد مماته ليخفوا العجائب التي كانت تظهر عليه ». ولما اشتدّ بهم الجوع والعطش تقدّم يهوذا ودلّ الملك على محل الجلجلة، مستنداً الى قول الانجيل ان المسيح دُفن فيها. ولما رأى الملك الردم العظيم حزن، فاشار عليه يهوذا بان يجبر اليهود انفسهم على رفعه. فاصدر اوامره بذلك وعاد الى رومية حيث كانت تستدعيه مهام المملكة، تاركاً كثيراً من غلمانه لحثّ اليهود على الاسراع في العمل، ووالدته للاشراف عليه بمساعدة اسقف اورشليم (صفحة ٢٣٥ — ٢٤٠).

فانت ترى ان الملكة هيلانة لم تحوّل في رواية الميمر الا دوراً ثانوياً لان الملك هو الذي افتتح التحقيق وامر بالحفر. والميمر يتحاشى المغالاة في عدد العلماء فهم سبعة لا الف. ويتحاشى ايضاً التصنع الظاهر في الاساطير ان اليهود انتخبوا من الالف خمسمائة ومن الخمسمائة ثلاثين ومن الثلاثين واحداً. وهو يختلف عنها في تسمية جد يهوذا فيسميه يهوذا لا زكي.

ثالثاً : استغرقت عملية ازالة الردم ستة اشهر من ١٢ اذار حتى ١٣ ايلول. وفي هذا اليوم ظهرت مغارة القبر وداخلها ثلاثة صلبان وكتابة تركها نيقوديموس ويوسف الرامي مفادها انهما خبآ الصلبين خوفاً من ان يحرقها اليهود، وان الصليب الحامل اللوح والكتابة هو صليب المسيح (صفحة ٢٤٠—٢٤٢).

فالصليب عُرف حسب رواية الميمر من اللوح المعلق عليه، وليس من العجائب المتناقضة التي اتحفتنا بها الاساطير واشاعات اوائل القرن الخامس، والتي نبذها العلماء. ولا ذكر هنا لاوسابيوس اسقف رومية، الذي خلطته الاساطير باسقف نيقوميدية. والميمر يتفق مع اقوال القديسَين امبروسيوس ويوحنا فم الذهب ان الصليب عُرف من الكتابة المعلقة عليه. وهكذا قل عن

العجائب الحـائقة حول زمن اكتشاف الصليب ومكانه. لانه وُجد ، حسب ميمرنا ، داخل القبر. وهب انه وُجد بجانبه ، في اثناء حفر اساسات الكنيسة ، كما يرجح الاب آبيل ، فذلك لا يخالف رواية ميمرنا في جوهرها. ولعل وجود الصليب في القبر او بجانبه يفسّر سكوت قسطنطين واوسابيوس عنه. لان اكتشاف القبر كان يعني اكتشاف الصليب ، من قبيل ذكر الجزء في الكل ، كما ان زيارة القدس تعني زيارة القبر والجلجلة وبقية الاماكن المقدسة. واغلب الظن ان الاهمية الاولى كانت في ذاك العهد للقبر لا للصليب. وفي يومنا عبادات كثيرة كعبادة قلب يسوع ، واعياد كثيرة كعيد القربان والحبل بلا دنس لم يكن لها ذكر ولا وجود واصبحت الان من اشهر العبادات واعظم الاعياد . والتاريخ ينبئنا ان اكبر عيد في عهد قسطنطين كان تدشين الكنائس ؛ ولم يكن اكرام الصليب ، في بادئ الامر ، سوى احد مظاهره. وما عتم ان فاقه اهمية وتركه نسياً منسياً. ولا ننسَ ان اوسابيوس كان يميل الى الاريوسية التي لم تكن تعبأ بامر القبر والصليب ، وانه لم يذكر القبر الا عرضاً ليحكي عن اهتمام الملك ببناء كنيسة القيامة الفخيمة. ولا ننسَ ايضاً ان معلوماتنا عن القبر والصليب ، في ما سوى الميمر والاساطير ، نادرة مقتضبة ، ربما امكننا اتخاذ قلتها دليلاً على اكتشاف كليهما في بدء العهد الذي خرجت فيه النصرانية من الاضطهادات ، ولم يتسع لها الوقت لتنظيم شؤونها الثانوية والاهتمام بتسجيل حوادث تاريخها.

رابعاً : حُمل الصليب بعد ظهوره الى القديسة هيلانة فقبّلته والبسته حلة ثمينة وكتبت الى ابنها قسطنطين تبشره وتدعوه للحضور : « طوباك يا بني الحبيب والخير يكون لك لانك طلبتَ فوجدت . . . تعالَ لتعاين ما هو افضل من الجواهر الكريمة . . . فاذا رأيتـه في حسنه يتجدّد شبابك مثل النسر ». فجاء قسطنطين وسجد للصليب وامر ببناء كنيسة لائقة به وبالقبر ، وترك لوالدته اموالاً طائلة تُنفقها على تشييد الكنائس ، وخاصةً كنيسة المغبرة. وقد شُيّدت كنيسة اخرى على الجلجلة باسم الصليب ، ورجع الملك الى مدينته بالسلام (صفحة ٣٤٢ – ٣٤٦).

هـذا يوافق ما نعرفه عن سعي قسطنطين ووالدته في اقامة الكنائس ،

ومن جهة اخرى عن ان كنيسة القيامة أقيمت بحضور والدته التي بنت ايضاً كنيستي جبل الزيتون وبيت لحم.

ولاحظ هنا ان قول الملكة هيلانة لابنها بتجديد شبابه ، اذا شاهد الصليب ، يوافق ما نعرفه عن سنه في ذاك الحين. فقد وُلد في سنة ٢٧٤، او على الاكثر سنة ٢٨٠ ، فيكون في سنة ٣٢٧ شيخاً في الثالثة والخمسين او كهلاً في السابعة والاربعين.

خامساً : لما تمت الكنائس وتزينت باجمل مظهر احتفل اسقف المدينة بتكريسها بحضور اساقفة كثيرين جاؤوا « لتمجيد الصليب ». وكانت الحفلة في ١٤ ايلول ، يوم ظهور الصليب المقدس والقبر (صفحة ٢٤٦).

هذا يدلّ على ان تدشين الكنائس صار في يوم تذكار ظهور الصليب ، وان ظهور الصليب سبق حفلة التدشين سنة ٣٣٥. ولعله السبب الحقيقي لتعيين حفلة اكرام الصليب في عيد التدشين ، وان التقليد الذي اوردته السائحة اتيريا سنة ٣٨٥ كان قد عكس الحقيقة فجعل ظهور الصليب في تذكار التدشين ، او ان اتيريا فهمت عكس الحقيقة . على كل حال فالميمر يوافق قول اوسابيوس في حضور اساقفة مجمع صور حفلة التدشين سنة ٣٣٥ . ونلفت النظر هنا الى اهمال الميمر ذكر حضور القديسة هيلانة هذه الحفلة. فهي قد تركت اورشليم قبيل وفاتها بقليل سنة ٣٢٩ .

سادساً : اما يهوذا ، دليل القبر ، فقد آمن لدى مشاهدة الآيات التي رافقت ظهوره واقتبل العماد هو وجماعته من يد الانبا يوسف اسقف اورشليم واصبح « مكرّماً من اجل امانته الارثوذكسية » ومن اكبر الساعين في هداية بني أمته ، فاستحقّ ان يخلف الانبا يوسف على كرسي اورشليم (صفحة ٢٤٧).

فلا ذكر هنا لقرياقوس ، الذي يعترض العلماء على إدماجه بيهوذا ، ولا لحكاية وجود المسامير المقدسة وصوغها لجاماً لفرس قسطنطين ، مما يدعم قولنا باستقلال ميمرنا عن الاساطير السريانية ، التي ترتقي نسخها الى اواخر القرن الخامس او اوائل السادس ، وباقدميته عليها وتنزهه عن اغلب غلطاتها. اما اتفاق الميمر مع اقوال القديسَين امبروسيوس وفم الذهب (٣٩٠ — ٣٩٥) فدليل

على انه معاصر لها او سابقها بقليل.

٣ ــ الاساطير ونسبة الميمر

هب ان الاعتراضات على الاساطير وجيهة ، وانها تصيب الميمر كما اصابتها، لوقوعه في نفس اغلاطها ، فهل يتحتّم بعد هذا ان ننكر نسبته الى القديس كيرلس ؟

قلنا اذا ثبت اكتشاف القبر سنة ٣٢٦ او قبيلها كان سنّ القديس كيرلس حينئذٍ احدى عشرة او ثلاث عشرة سنة ، ولعله كان في ضواحي اورشليم ، فخطأه في رواية هذا الحادث ، اذا كان هناك خطأ ، يُعزى الى صغر سنه او الى غيابه عن اورشليم ، او الى الاثنين معاً.

وان سلّمنا ان الصليب لم يظهر مخبوءاً في القبر ، كما يُستنتج من اقوال الميمر ، بل ظهر بين سنتي ٣٣٥ و٣٣٧ ، فيكون القديس قد بلغ العشرين او الثالثة والعشرين ، فلا يُعذر كثيراً على الخطأ، اذا ثبت حضورُه الاكتشاف. ولكن من يُثبت لنا ذلك ؟ ومن يثبت خطأه ؟

وذكر مصرع يوليانوس في سنة ٣٦٣ الوارد في الميمر يجبرنا على تأجيل القائه بعد هذه السنة. وسنورد ما يرجّح القاءه في آخر حياة القديس بين سنتي ٣٧٨ و٣٨٧. فتكون المدة بين القائه وظهور الصليب زهاء اربعين او خمس وخمسين سنة. وقد شاعت في ذاك الحين ، كما سبق القول ، روايات نسبت الى الملكة هيلانة فضل اكتشاف الصليب ، فان اتبعها القديس كيرلس ، كما اتبعها القديسان امبروسيوس وفم الذهب ، يكون قد بنى معلوماته مثلها على رواية مغلوطة ، اذا كانت كذلك . بيدَ ان مطابقة اقواله لاقوال هذين القديسين المعاصرين ، دليل على صحة نسبة الميمر اليه لا على نفيها.

ومهما كان من الامر فالخطأ في رواية حادث كما قلنا لا ينفي حتماً نسبتها الى معاصر. ونحن نرى الجرائد في عصرنا تروي حادثاً وقع بالامس في المدينة او القرية التي تصدر فيها ، وامام اعين مخبريها ، وهي تختلف في روايته وتعليله مع سهولة المواصلات والمخابرات. ولا يخطر على بال احد ان ينفي نسبة

الرواية الى الجريدة التي نشرتها. وقد خطأ الاب لكلير واتباعه رواية اوسابيوس عن رؤيا قسطنطين ، مع انه مترجمه ومعاصره وامين سرّه ، ولم ينكروا نسبة تاريخه اليه. وهكذا فعلوا في تخطئة روايتي القديسين امبروسيوس وفم الذهب عن اكتشاف الصليب على يد الملكة هيلانة ، ولم ينكروا عليها الخطابين اللذين وردت فيها تلك الرواية.

اساقفة اورشليم

بقيت امامنا صعوبة لا تقل عما سبقها خطورة ، وهي خطأ الميمر في اسماء اساقفة اورشليم سلفاء القديس كيرلس. فان لم يكن هذا القديس معاصراً لرؤيا قسطنطين واكتشاف القبر والصليب ، فكيف يجهل اسماء الاساقفة الذين سبقوه بقليل. فالميمر ليس له. وفي الواقع ، اذا راجعنا سلسلة هؤلاء الاساقفة المؤرخين المعاصرين ، رأيناها مختلفة عن سلسلة الميمر اختلافاً كلياً. وهاك ما وجدناه في كتاب الاب لكويان[1] نقلاً عن اوسابيوس وغيره :

حرمون	انتخب سنة ٣٠٢	وهو الثامن والثلاثون
مكاريوس قرياقوس	» » ٣١٣	» التاسع والثلاثون
مكسيموس الثاني	» » ٣٣٥	» الاربعون
كيرلس	» » ٣٤٨	» الواحد والاربعون

وقد ذكرت الاسطورة السريانية[2] اسماء العشرة الاولين واردفت بقولها « وغيرهم » من غير ان تذكر اسماءهم. ثم تكلمت عن يهوذا مكتشف القبر والصليب وجعلته الخامس عشر كما فعل ميمرنا. فتكون قد اهملت اسماء الاربعة الذين تولوا كرسي اورشليم قبل يهوذا.

اما ميمرنا فيذكر الانبا يوسف بدلاً من مكاريوس ، وينسب اليه ما نُسب الى المذكور من الاشراف مع الملكة هيلانة على رفع الردم وظهور القبر والصليب وتدشين الكنائس ، ويجعل يهوذا خليفة له ، وبعده مرقوس. واليك

(١) Lequien, *Oriens Christianus*. t. III, p. 152

(٢) نسخة : صفحة ١١

النصين الواردة فيها اسماء هؤلاء الاساقفة صفحة ٢٤٠ : « وعاد قسطنطين الى رومية... وترك والدته وخلف عندها اساقفة قديسين وهم اثناسيوس رئيس اساقفة انطاكيـة ، وانبا يوسف رئيس اساقفة اورشليم الذي هو الرابع عشر الذي جلس في اورشليم بعد التلاميذ في الختان . وانا ايضاً كيريللوس واحـد منهم ».

وفي صفحة ٢٤٦ يقول: « كلوا الكنائس المقدسة... وكرزوهم انبا يوسف اسقف المدينة المقدسة ومعه اساقفة كثير ارثوذكسين... »

وفي صفحة ٢٤٧ : « وعمدوا يهوذا والذين معه على يدي الاب انبا يوسف... ومن بعد هـذا تنيح الاب انبا يوسف واقاموا عوضه يهوذا وهو الخامس عشر من بعد الآبا الرسل في الختان... ولما تنيح اخذ اسقفيته واحد يقال له [٢٤٨] مرقوس وهو اول من صار اسقف لاورشليم بغير ختان ».

فالميمر يخطئ اولًا في اسم بطريرك انطاكيـة اذ يسميه اثناسيوس وهو اسطاتيوس

ثانياً في اسم مكاريوس الذي يبدله بيوسف

ثالثاً في رتبة يهوذا الذي يجعله الخامس عشر مثل الاساطير

رابعاً في اسم مكسيموس، سلف القديس كيرلس، اذ يجعله مرقوس ويقول انه اول من رقي كرسي اورشليم من غير اليهود.

فنجيب على الخطأ الاول ان اسم اسطاتيوس مأخوذ عن تاريخ ابن العبري (القرن ١٣) حيث ورد بدلًا من اثناسيوس ولا نعرف في اي جانب وقعت الحقيقة ، ولا نعرف لبطاركة انطاكية سلسلة ثابتة . ولعل تلقيبه برئيس اساقفة يعني به نائب البطريرك لا البطريرك نفسه . ولا حرج على القديس كيرلس اذا غلط في اسم بطريرك جلس على الكرسي الانطاكي في اوائل القرن الرابع ، اذا لم يكن هناك سهو ناسخ .

ثانياً : اما جعله يوسف بدلًا من مكاريوس فلا نرى له فيه عذرًا مقبولًا ، الا اذا كان هـذا الاسقف يحمل اسمين . ولعله كان مشهورًا عند اليونان باسم مكاريوس وعنـد ابناء وطنه باسم يوسف . وقد ورد في ميمر المتحف القبطي

باسم « يوساب » وهو قريب من يوسف او تحريفه بابدال الفاء السريانية ﭫ باء ﭪ . هذا اذا لم نفترض هنا خطأ الناسخ او الناقل . لان القديس كيرلس ، كما جاء في ترجمته ، لم يكتب ميامره بل اكتفى بالقائها . وجاء مَن التقطها عنه ودوّنها بالكتابة حسب معرفته وفهمه . فاذا كان القديس كيرلس معاصرًا لخليفتيه فلا يتحتم ذلك على كاتب عظاته . على كل حال فالقبر قد اكتُشف ، حسب ترجيح اغلب العلماء ، حوالي سنة ٣٢٥ حين كان القديس كيرلس لم يتجاوز العاشرة من سنه .

ثالثًا : وخطأه في ترتيب عهد اسقفية يهوذا قد يعني به انه الخامس عشر من اليهود . نعم ان اليسر يجعل خلفه مرقوس اول اسقف من غير اليهود ، فان لم نفرض هنا خطأ نساخ ، تحتم علينا تخطئة القديس كيرلس في ترتيب هذه السلسلة ، وان نلقي هذا الخطأ على عاتق التقليد الذي نقل عنه القديس كيرلس ، كما صرح هو نفسه . ولعل هذا التقليد اصح من السلسلة المعروفة التي تقيم اربعين اسقفًا على اورشليم في مدة تقل عن قرنين . ولا يخفى ان القديس كيرلس لم يكن لديه تواريخ مطبوعة منسّقة كما في عهدنا . والسلسلة التي وتبها لكويان ليست بثابتة نهائية . ومهما كان الامر فيسرنا لا ينقل عن الاساطير السريانية التي اهملت ، كما قلنا ، اسماء الاساقفة الاربعة الذين سبقوا يهوذا ولم تذكر بعد هذا الاخير احدًا غيره .

رابعًا : اما خطأه في اسم سلفه ، اذ جعله مرقوس بدلًا من مكسيموس ، الذي ارتقى الاسقفية سنة ٣٣٥ ، ورسم القديس كيرلس بيديه ، فليس في الواقع خطأ . فان تمننا في العبارة تحققنا انه لا يعني سلفه الاخير بل احد سلفائه . لانه يقول عن الانبا يوسف « الذي هو الرابع عشر الذي جلس في اورشليم بعد الختان وانا ايضاً كيرلوس واحدًا منهم » اي واحدًا من اساقفة اورشليم .

نقول هذا ونحن عالمون بان روايات اوسابيوس قد لا تتفق مع هذه الافتراضات . ولعل الايام تظهر ما يعزّز هذه الافتراضات . ونقر ايضاً ان اغلب ما اجبنا به على الاعتراضات القائمة ضد الاساطير ، والتي قد يمكن تطبيق

بعضها على ميمرنا ، لا يخرج عن حيّز التخمين والتأويل . بيد ان الاعتراضات نفسها لا تخرج ايضاً عن حكم الرجم في الغيب . ولعلّ تقدمها اقل ثباتاً من دفاعنا .

ولو لم يكن لدينا في نصوص الميمر دلائل ترجّح كفتنا عليها لضربنا به وباجوبتنا عرض الحائط . انما ان درسنا هذه النصوص عثرنا فيها على ما يرجح نسبته الى القديس كيرلس ترجيحاً يقرب كثيرًا من اليقين ، ويدر تمسكنا بصحة نسبته وموقفنا في ردّ الهجمات عنه . فلننتقل اذاً من البراهين السلبية التي قدمناها حتى الآن ، الى البراهين الوضعية ، التي يمكنا استخراجها من هذه النصوص ، ومن المقابلة بينها وبين ما نعرفه لهذا القديس من الآراء والاساليب والنزعات .

البحث الثالث

دلائل نسبته

للوصول الى ترجيح نسبة الميمر الى القديس كيرلس الاورشليمي رأينا ان نلتقط من نصوصه ما يدلنا على لغته الاصلية ، والجمهور الذي أُلقي عليه ، والمكان الذي أُلقي فيه ، وعلى جنسية المؤلف ومذهبه وأسلوبه . وان نمرّ بنظرة سريعة على نظام الميمر لنثبت ان ليس فيه علائم التلفيق . فنشرع بعد ذلك الى سماع تصريحات الميمر نفسه عن صاحبه وعصره .

١٢ ـــ لغة الميمر

مرّ بك ان ناسخي مخطوطتي بكركي وحلب قد نقلا عن مصدر واحد، هو مجموعة لاحد السريان اليعاقبة القاطنين في القطر المصري . بقي ان نعرف اللغة التي عُرّب عنها . فان لم تكن الاصلية ، فبأي لغة كُتب اولاً ، وما هي جنسية المترجم والمعرّب ؟ كل هذه اسئلة يمكنا الاجابة عليها بعد البحر في نصّ الميمر نفسه .

فقد وصل الينا بلغة عربية سقيمة مضطربة مشحونة اغلاطاً نحوية ولغوية ، مما يحملنا على الظن ان معربه عاش في القرون الوسطى، لانحطاط اللغة فيها ، ولم

يتعدّ القرن الثالث عشر. ونستدلّ من بعض تعابيره ان المعرب هو احد السريان النازلين في القطر المصري ، نقلـه عن نصّ سرياني منقول بـدوره عن النص اليوناني الاصلي ، وهي اللغة التي وصلت الينا بها كل تآليف القديس كيرلس.

١ ــ ترجمته في القطر المصري

من ادلّة ترجمته في القطر المصري ما ذكرناه سابقاً عن ورود اسماء الاشهر فيه حسب الاصطلاح القبطي :

فقد جاء في صفحـة ٢١٣ و٢٦ [1] : « قال الربّ لموسى ان يعيّدوا ثلاث دفعات في السنة في الرابع عشر من الشهر الجديد الذي هو برموده »

وفي صفحة ٢٤١ و ٥٧ : « كان اول يوم بدأ اليهود العمل (في رفع الردم عن القبر) الثاني عشر من شهر ماردیوس الذي هو برمهات . ولم يزالوا يعملوا فيه الى يوم الثالث عشر من شهر توت »

وفي صفحة ٦٩ من نسخة حلب : « كرّزوا كنيسة القيامة في الرابع عشر من شهر توت الذي هو ايلول »

وفي صفحة ٧٠ منها نبّه الناسخ قرّاءه الى هذا الاصطلاح بقوله : « كان تكريس كنيسة القيامة في الرابعة من شهر توت الذي هو ايلول على رأي المصريين »

ومن هذه الدلائل قوله في صفحة ٢٣٨ و٥٤ عن مساحة الارض المردومة فوق القبر انها « تل عالي على كل المدينة قدر مائة ذراع يجي قـدره عشرين فدان » ، والفدّان قياس مستعمل في وادي النيل خاصة ، كما لا يخفى.

وفي صفحة ٢٢٤ و٣٦ : « كتب اسبيانوس الى بطلماوس ويس القبط » مع ان المذكور كان ملكاً على كل سكان القطر المصري ، وبينهم عدد يذكر من اليونانيين واليهود.

ويقول في صفحة ٢١٥ و٢٨ : « ان الانسان الحكيم يمضي الى حقله وينقي منه السنط والشوك » . ومعلوم ان السنط غير معروف في سوى وادي النيل

---

١) لا تنسَ ان الرقم الكبير يدل على مخطوطة بكركي والصغير على مخطوطة حلب.

ولا ينبت الا فيه .

فضلًا عن لقب انبا الخاص بالاقباط الذي يرد غالباً مرافقاً لكلمة اب : الانبا واكس صفحة ١٩٧ و٢٠٠ و٢٠٦ ، والاب الانبا يوسف ٢٤٦ و٢٤٧[1]

وفي صفحة ١٩٣ : «يجروا خلفهم»، وفي صفحة ٢٢١ : «فصار يمشي ويجري»، مستعملًا جرى بمعنى ركض واسرع . وهو تعبير خاص باللهجة المصرية . وغير ذلك لا حاجة الى الاطالة فيه . ويغلب على الظن ان ميمر القديس كيرلس المحفوظ في المتحف القبطي مأخوذ اكثره عن نصّ ميمرنا . البسه منقحه ثوباً عربياً مسجعاً ليتلى في الكنيسة .

٢ — تعريبه عن السريانية

وهذا لا يعني انه معرّب عن القبطية او ان المعرب قبطي . فالاقباط لم يتعلموا قط السريانية . وآثار السريانية بادية في التعريب ، مما يحملنا على القول ان التعريب منقول عن السريانية ؛ ولو كان المعرب قبطياً . نقول هذا نفياً للشك الذي قد يطرأ على ذهن القارئ بان واضع الميمر قبطي كواضع بقية الميامر المنسوبة زوراً الى القديس كيرلس ، والتي سبق الكلام عنها . وسنسرد في ما يلي امثلة من التعابير التي ليست بعربية بل سريانية او بالاحرى يونانية . ونكتفي الآن بالاشارة الى بعض الآثار السريانية الباقية في نصنا العربي :

ففي صفحة ٢٠٣ يلقب السيدة العذراء « مريت مريم» اي السيدة مريم . وهو تعبير سرياني محض .

ولا يخفى ان السريان يعبرون عن الپا الغربية الغليظة بحرف الفاء والعرب بالباء . بيد انك تجد في الميمر صفحة ٢١٥ الفارقليط بدلًا من البارقليط . وفي صفحة ٢٢٣ اسفيانوس . وفي صفحة ٢١٥ البنديقوسطي بالقاف ، بدلًا من البنديكوستي .

والاظهر من ذلك ايراده في صفحة ٢٢٤ ܩܪܝܛܐ حسب كتابتها بالسريانية بدلًا من كيفانا ܟܝܦܐ حسب لفظها العربي .

---

١) نكتفي بذكر صفحات مخطوطة بكركي حيث توافقها مخطوطة حلب

والاكثر دلالة على قولنا سير المعرب على القاعدة السريانية في التذكير والتأنيث . فيذكر ما هو مؤنث في العربية لانه مذكر في السريانية وبالعكس، تأثرًا بالاصل الذي يعرب عنه . فيقول في صفحة ٢١٢ : « ليس تحل عليه روح القدس » مع ان الروح مذكر في العربية اذا عني به الاقنوم الثالث ، لكنه مؤنث في السريانية . والاغرب من ذلك تذكيره لخشبة الصليب بقوله في صفحة ١٩٩ : « خشبة الصليب يكون والذي » لانه يترجم كلمة ܨܠܝܒܐ المذكرة في السريانية.

٣ — اصله اليوناني

ان عدم تضلع المعرب من السريانية والعربية ، وضعف المترجم في اللغتين السريانية واليونانية وتوخيهما الترجمة الحرفية جعل العبارة في الترجمتين غريبة غامضة ، واحياناً غير مفهومة . انما جاء هذا العيب دليلًا كبيرًا على النص الاصلي وحافظاً بقدر الامكان للتعابير الخاصة به وبلغته ؛ كالصفحة الحاسة من الآلة المصوّرة ، التي تطبع الصورة الاصلية بزاياها وعيوبها وخطوطها ، فتأتي صورة طبق الاصل مهما تعدّدت عيوبه . فحقّ لنا ان نغتبط بهذا الجهل لان الغموض في نصنا العربي يرجع اغلبه الى الغموض الذي عثر به المعرب في الترجمة السريانية . والغموض في النص السرياني يغلب على الظن انه عائد الى ضعف المترجم في السريانية واليونانية . ولعل بعضه متأتٍ من تشويه النساخ للاصل اليوناني . نعم ان السريانية قد تأثرت من اللغة اليونانية في معجمها واصطلاحاتها وانشائها ، انما احتفظت بوضوحها وبكثير من سلاستها . ونحن نرمي من وراء ما ندلي به هنا الى ازالة احدى الصعوبات التي قد تعترض نسبة ميمرنا الى القديس كيرلس ، لان تآليفه وصلتنا كلها باليونانية ، والى تبديد الشبهة التي قد تحوم في ذهن العلماء حول واضع ميمرنا ، او بالاحرى ملفقة ، انه احد الاقباط ، ام ان الميمر مأخوذ عن الاساطير البريانية الملفقة او عن الاشاعات التي تضمنتها.

واليك نماذج من تراكيب غريبة ، بعيدة عن العربية بعد هذه اللغة عن

اليونانية ، نلتقطها من نصنا العربي بين مئات من امثالها :

ففي صفحة ١٨٧ يقول « الذي له نسبد » ، وفي صفحة ١٨٨ « لكي أن نفتش في نواميسه » ، وفي صفحة ١٩٣ « فعندما هم حاملوه ، مدّ يده الاله المتجسد ولمس النعش . فعند ذلك وقف الذين حاملوه » ، وفي الصفحة نفسها «معطيهم الحياة يريدوا قتله» . وكثيراً ما يقول «الذين يرتلون» بدلاً من المرتلين .

ومن التعابير الخاصة باليونانيين اطلاق كلمة « بطريرك وبطاركة » على جدود البرانيين ، على كون هذا اللقب مخصصاً عند السريان والعرب برئيس الطائفة المسيحية . ففي صفحة ٥ من مخطوطة حلب نقرأ : « ورؤساء الآباء البطاركة والانبياء » ، وفي صفحة ١١ منها يقول عن والد يعقوب « لانه اسم اسحاق البطريرك رأس الآباء »

ومن اغرب الدلائل على الاصل اليوناني كلمة « الاترانيون » الواردة في النصّ العربي بدلاً من الجلجلة والقرقفة . وهي مركبة من ال التعريف ὁ وكلمة κρᾶνιον اي الجمجمة . وقد تركها المترجم السرياني على صيغة المفعول به كما وجدها في الاصل اليوناني ، عوضاً عن ان يوردها بصيغة الفاعل ὁ κρᾶνιος . اما المعرّب فلجهله انها تحمل اداة التعريف اليونانية اضاف اليها ال التعريف العربية . فاصبحت الاترانيون (الاحتماعي) ، كما وردت في صفحة ٢٣٨ : « ان راا سيدي يتعنا ويجي معي . فانا اوريه الجلجلة الذي هو موضع الاقرانيون » . وفي اسفل الصفحة يشير يهوذا الى التلّ المردوم موجهاً كلامه الى قسطنطين : « هذه هي الجلجلة على قدر لغتك . وعلى قدر لساننا نحن البرانيين كينانا صاهدا » . وجاء في صفحة ٢٢٤ : « واما اليهود الذين بقوا في اورشليم (بعد خرابها) نسوا عادة ابايهم ولم عادو يرموا تراب على قبر يسوع ولانه قد صار تل عظيم على مقبرة يسوع وموضع الجلجلة حتى ان لا بقا احدهم يذكرهم البتة . وكانوا يسموا ذلك التل اترانيون اي يسوع ويسموها الجلجلة . »

ومن دلائل الاصل اليوناني كتابته اسم الانبا باخوس مبدلاً الباء بالواو واضعاً نقطة فوق الكاف ليمنع ترخيمها ويجبر القارئ على لفظها كافاً : واكس ، واخص ، وفي اليونانية ὁ Βάκχος . وهو اسم لاتيني الاصل كان الرومان

يطلقونه على اله الخمر ويكتبونه بالباء والكاف *Baccus* . بيد ان اليونان يرخون حرف الباء ويلفظونه كحرف v اللاتيني . فاستعاض عنه مترجمنا بحرف الواو تبعاً للفظه اليوناني ، بدلاً من الباء . ووضع النقطة على الكاف السريانية خوفاً من ترخيمها مع ان الاسم يلفظ عادة بالباء والخاء في السريانية والعربية باخوس ܒܚܘܣ . تجدهما على هذه الصورة في صفحات ١٩٧ و٢٠٠ و٢٠١ و٢٠٦ . ولحقه في ذلك ناسخ المخطوطة الحلبية .

كذلك كتب في صفحة ١٩٥ : يورشليم ܒܘܪܫܠܝܡ بدلاً من اورشليم ܐܘܪܫܠܝܡ ، حسب لفظها العربي والسرياني . وهي مركبة من ܐܘ و ܫܠܡ انما المترجم السرياني قد تأثر من لفظها اليوناني فكتبها على هذا الشكل ثلاث مرات في الصفحة المذكورة . وعاد فاوردها هكذا في صفحة ٢٤٦ . وتبعه في ذلك ناسخ مخطوط حلب . اما في بقية الميمر فقد عاد كلاهما الى نقاها : اورشليم ، كما اعتادا لفظها في العربية والسريانية .

ومن هذا القبيل ايضاً كتابته في صفحتي ١٩٩ و٢٥٠ لاسم يسوع بالالف إيسوع ܐܝܣܘܥ حسب لفظه اليوناني Ιησους بالرغم من كثرة تردده على شفاه المسيحيين الشرقيين بدون الف وبفتح الياء في العربية يَسوع ، وخفضها في السريانية ܝܫܘܥ

وقد حذف العين من اسم احد العلماء العبرانيين السبعة لانها لا توجد في اليونانية فكتب « يشُوا » ܝܫܘܐ

وكتب ايضاً في صفحة ٢٢٣ : برنياس ܒܪܢܝܐܣ ، وفي صفحة ٢٢٧ : برناس ܒܪܢܐܒܐ بدلاً من برنابا حسب الاصطلاح السرياني والعربي .

وفي صفحة ٢٣١ كتب هرقليس ܗܪܩܠܝܣ بالياء والسين بدلاً من هرقل بالعربية ، او هركولوس *Herculus* باللاتينية .

وفي الصفحة ذاتها ورد اسم « عقلاداريون » اله الحرب ܥܩܠܐܕܐܪܝܘܢ وهو اسم مركب من كلمتي ܥܩ ܐܠ اللتين لم ندرك اصلهما ومن دال الاضافة و ومن اسم « اريون » اله الحرب عند اليونانيين . انما جاء به بصيغة المفعول به كما وجده في الاصل اليوناني .

ونختم بياننا بلسم شهر اذار الذي يورده ماريوس صلوبصص نقلاً عن اليونانية Kratikon . فانك تقرأ في صفحة ٢٤١ : «وكان اول يوم بدو بالعمل الثاني عشر من شهر ماريوس الذي هو برمهات» . وهو من الغرابة بمكان ويدل على جهل مطبق ، مع ان لهذا الشهر في السريانية والعربية اسماً شهيراً خفيف اللفظ أيوّ ادار.

ونأمل ان نكون قد وفينا هذا الموضوع ادلةً وشواهد . وحق لنا ان ننتقل الى ما هو اهم منه ، وهو الاستدلال من نصّ الميمر على جمهور السامعين وعلى المكان الذي القي فيه هذا الميمر فنعرف منه ايضاً الواعظ ، ونستدرج من ذلك الى معرفة اسم المؤلف.

١٣ — الجمهور والمكان

تدلنا نصوص الميمر اولاً على انه قد أُلقي على جمهور مسيحي فلسطيني عائش بين ثلاثة عناصر يهودية واريوسية ووثنية ، وان العنصرين الاول والثاني قويان.

وتصرّح لنا ثانياً انه قد أُلقي في كنيسة القيامة ، يوم الاحتفال بارتفاع الصليب ، قبل البدء بهذه الخطبة .

١ — العنصر اليهودي

جاء في مستهلّ عظات القديس كيرلس ما حرفيته[1] : «ان قصدي هو تسليحكم ضد العدو اي المراطقة واليهود والسامريين والخوارج (اي الوثنيين)» الى هذا الغرض يرمي ايضاً صاحب الميمر . فحملاته الشديدة على اليهود ، وكثرة كلامه عنهم والاستشهاد ضدهم باقوال انبيائهم ونصوص كتابهم ، وتفسيرها لمصلحة النصرانية ، اي لاثبات الوهية المسيح وصحة رسالته ؛ واشاراته العديدة الى عاداتهم واخلاقهم وخيانتهم ، لدليل لا يسع المنصف اهماله ، على وجود عنصرهم بين ابناء مذهبه بكثرة يخاف من تأثيرها عليهم ، والوقوف في سبيل جهوده لهداية هذا العنصر.

---

١) راجع معجم فاكان مج ٣ : ع ٣٥٢٨

قصة اسحق السامري ، المتشبث بعادات اليهود من تطهير الآنية والاستحمام في عين اورشليم والختان وزيارة الاماكن المكرمة عندهم ، واهتدائه اخيراً مع ذويه تستغرق قسماً مهماً من العظة وتشغل الصفحات ١٩٥ – ٢١٠ و٢٥٠ و٢٥١ من الميمر . ثم ان محاولة الواعظ اقناع اليهود والسامريين ، على لسان الانبا باخوس ، ببطلان تقاليدهم وان ما خلقه الله طاهر غير نجس ، دليل على انه وساميه عارفون بهذه التقاليد .

وحكاية اقامة ابن ارملة نائين وابن اكلاوبا ، وشفاء اكلاوبا ذاته ، وشهادته للمسيح وادانته لبني جنسه بأنهم ظلموا المسيح ، تشغل الصفحات ١٩٣ و١٩٤ و٢١٨ – ٢٢٢ ، وتدل على اهتمام الواعظ بارشاد اليهود الذين لم يؤمنوا بعد ، والمحافظة على الفئة التي اعتنقت منهم النصرانية .

كذلك قل عن اسهابه في الكلام على اضطهاد اليهود للمسيح ، وقساوة قلوبهم في معاملته ، وصمّ آذانهم عن نصائحه ، وعماهم عن الخوارق التي اجترحها في حياته وبعد موته ، ومحاولتهم حرق صليبه وطمس العجائب التي ظهرت على قبره ، وتهافتهم على ردم قبره بزبالاتهم . وكيف ان الرب عاقبهم بصرامة على ذلك بخراب اورشليم وهيكلها ، وذبح قسم كبير من شعبهم ، وتشتيت البقية واذلالها اينما حلت . الى ان جاء قسطنطين واجبرهم على رفع الردم عن القبر تكفيراً عن ذنب آبائهم . فاشتغلوا به هم وبهائمهم ستة اشهر طويلة . هذه القصة ملأت الصفحات ٢٢٤ – ٢٤٢ من الميمر .

فان جمعنا ما يختص منها باليهود اصبحت اثنتين واربعين من الثلاث والستين التي يتألف منها الميمر . ويمكننا القول ان كلام الواعظ عن اليهود يستغرق تقريباً الميمر كله ، فهو لا يفتر عن ذكرهم او تقريعهم .

زد على ذلك استشهاده بالنصوص الواردة في التوراة عن ألوهية المسيح ورسالته . فهو ابن داود بالجسد (صفحة ١٨٧) وملك اليهود (ص ١٨٩) . والاله عمنوئيل (ص ٢٤٨) وكبش اسحق الذي هو اله بالحقيقة (ص ٢٤٩) والكاهن والقربان (ص ٢٥٠) والخروف بلا عيب الذي امر الرب موسى بأن يذبحه (ص ٢١٣) . اما صليبه فهو الحية النحاسية (ص ١٩٨) وسفينة نوح

(ص ١٩٩) . وعيد ارتفاع الصليب يدوم عدة ايام كالفصرة عند اليهود (٢١٥ و٢١٧) . وقد ذُبح المسيح في الرابع عشر من الهلال ودمه ملطّخ على حجر الجلجلة معيرة وتوبيخاً لليهود والغير المؤمنين بالله. اما نحن معشر النصارى فقد اخذناه ولطخنا به عتبات بيوتنا اي افواهنا وشفاهنا كما فعل بنو اسرائيل ليلة خروجهم من مصر فقد لطخوا به عتبات بيوتهم لينجوا من الملاك المفسد (ص ٢١٣ و٢١٤)

ناهيك عن تقريعه لليهود : فهم آلة الشيطان ينطق بها (ص ٢٢٥). وهو يعني بهم الامم التي غضبت لما ملك الرب (ص ١٨٧) الذي هو المسيح المنتظر جاء ليخلص سبينا (١٩١). وغير ذلك مما ستقرأه في الميمر مفصّلاً.

٢ — العنصر الاريوسي

قبل ان يختم القديس كيرلس ميمره نراه يحذّر المؤمنين من اتباع اريوس كعنصر كثير الخطر على صحة العقيدة . فيحمل عليهم حملة شعواء ، ويدلّ عليهم ، دون ان يسميهم ، دلالة صريحة بقوله « الهراطقة الذين ينكرون الوهية المسيح » . وكلمة « هراطقة » مرادفة لديه لكلمة « اريوسيين » مما يدلّ على ان بدعتي النسطورية واليعقوبية لم تظهرا بعد . ولا يخفى ان الاريوسية كان لها الشأن الاكبر طيلة القرن الرابع ، وفي اوائل الخامس قام ضدها النساطرة فضلاً عن الكاثوليك ، فما عتمت ان فقدت اهميتها ؛ ان لم نقل انطفأت ، في اواسط القرن الخامس المذكور. مما نستدل به على صحة نسبة الميمر الى القديس كيرلس ، الذي نفي مرتين من ابرشيته بسعي الاريوسيين ، وكان اكبر مناضل ضدهم ، كما شهد آباء المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١

ففي صفحة ٢٤٩ يحذر القديس ابناءه رعيته من مظاهر الاريوسيين الخادعة ، ويشبههم بذلك الوحش الميتولوجي ، الذي يظهر حملاً بتقدمه وثوراً بتوخره ، مع انه في الحقيقة فهد هائل يأكل لب الاشجار العوالي ، انما نجس في قلبه وجسده » . وهم متقلبون لا يثبتون على فكرة ومتناقضون في خطتهم . ينكرون من جهة الوهية المسيح « ويجعلونه انساناً لا غير » وهم مع ذلك

يعبدونه . فعبادتهم له تثبت انه اله او انهم وثنيون . اما آراؤهم فضيفة « كقش الشيح الذي ينكسر تحت يد من يرتكز عليه » ويتدرج من ذلك الى تحذير سامعيه منهم بقوله : « لا تذكروا يا احبائي كلام المراطقة ولا تدخلوا كنائسهم وتصلوا فيها ، لان ليس لهم كنائس . ولنعترف بلساننا وقلبنا ان عمنوئيل اله حقيقي . »

كل هذا ينطبق على الاريوسيين ، الذين استجلبوا قسطنطين الى رأيهم فاعتمد منهم في آخر حياته[1] ، وتسيطروا على ابنه قسطنس ، فنفى القديس كيرلس مع لفيف كبير من الاساقفة المضادين لبدعتهم ، وعادوا فاستصدروا من والنتيوس امرًا باعادته واعادتهم الى المنفى . وقوله « ليس لهم كنائس » يوافق ايضاً ما نعرفه عنهم . فقد كانت خطتهم ان لا يتميزوا بطقوسهم وعاداتهم ومعابدهم عن بقية المؤمنين ليسهل عليهم الانسلال بينهم . وكانوا ، اذا تغلبوا في مدينة ، او استولوا على ابرشية ، مارسوا في الكنائس التي وقعت بين ايديهم الطقوس الدارجة فيها ، واكتفوا بث بدعتهم في العظات والميامر التي يلقونها على الشعب المجتمع[2] .

وما تقدم يخوّلنا الحق بان نرجح ان القديس كيرلس يقصد اقحام الاريوسيين بقوله في صفحة ١٩٢ عن المسيح : « انه لبس السلاح الذي حارب به ذلك الخارجي اعني هذا الجسد الذي اتحد به مع اللاهوت » ، وتلقيبه السيد له المجد في صفحة ١٩٣ « بالاله المتجسد » . ولعله يقصدهم ايضاً بقوله في صفحة ٢٢٣ : « ان الدم الملطخ على حجر الجلجلة معيرة وتوبيخ لليهود وللغير المؤمنين بالله » ، اي الذين لا يؤمنون بالوهية المسيح .

٣ — العنصر الوثني

نجد في الميمر نصوصاً تشير الى عنصر وثني لم ينقرض بعد ، يحذر الواعظ سامعيه من الاقتداء باتباعه .

ففي صفحة ٢٤٨ ، قبل ان يحمل على الاريوسيين حملته المذكورة آنفاً ، يناشد

---

١) كابرول مج ٣ : ع ٢٦٢٢ ٢) كابرول مج ١ : ع ٤ ٢٨

سامعيه بان لا يفتكروا بالهة الوثنيين قائلًا :« لا نعبد الصليب المقدس بتوانٍ ولا نعبد المسيح بلساننا لا غير ونباركه بافواهنا ونفكر في قلوبنا بكثرة الالهة التي للوثنيين » وهنا يضرب لهم مثل الوحش الميثولوجي ، وهو كما لا يخفى من خرافات الوثنيين.

وحملته الشديدة في صفحتي ٢٢٦ و٢٢٧ على يوليانس الجاحد ، الذي جاهد باعادة الوثنية الى عزّها الاول على حساب النصرانية ، وتنسيقها على نظامها ، لا تخلو من دلالة على خوف الاسقف من سيطرتها على رعاياه ، ولو بطريق الاغراء واطلاق الحرية للشهوات الجسدية.

كذلك قل في برهانه عن ألوهية المسيح : انه انزل العقاب في اعدائه الامبراطرة ديوقلسيانس ومكسيميانس ويوليانس ، ومنح النصر والعز لقسطنطين محبه ورافع لواء صليبه .

ومن دلائل خوف الواعظ من الوثنية تحذير سامعيه من الاقتداء باعيادها وحفلاتها ، التي كانت تحمل الشعب على الاسترسال في ملاذّ الشره والدعارة ، بقوله في صفحة ٢١٦ عن عيد ارتفاع الصليب الذي اصبح ، في القرون الرابع والخامس والسادس ، من ابهج الاعياد المسيحية[1] « هذا الزمان الذي نفرح فيه يا احبائي كما امر الرب . وليس ذلك بكثرة مأكول ولا بكثرة مشروب ولا بكثرة غناء بل بكثرة تسابيح وتزامير نرتل له ونشكره لانه الاهنا ونحن شعبه وغنم رعيته. »

٤ ــ فلسطيني

كل هذا يوصلنا الى معرفة جنسية الجمهور الذي خطب فيه صاحب الميمر انه ، كما قلنا ، مسيحي فلسطيني محاط بعناصر يهودية واريوسية ووثنية . وهو يوافق ما نعرفه عن مسيحيي فلسطين في اواسط واواخر القرن الرابع.

تنبئنا نصوص الميمر ان الواعظ فلسطيني وان سامعيه من مسيحيي اورشليم ، بينهم عدد كبير من الحجاج الآتين من المقاطعات المجاورة ، وبعض

---

١) راجع قنسان وآيل : اورشليم ٢ : ٢٠٤ ؛ ورحلة اثيريا ٨ : ١ و ٢

الاجانب الذين جاؤوا من الاقطار القريبة ، لحضور حفلات ارتفاع الصليب « الهوزيس » الباهرة . والواعظ متشبع من التقاليد المحلية عن معاصري السيد المسيح ووجوه قرابتهم منه ، ويعرف الاماكن المقدسة معرفة تامة ، ليس في اورشليم فحسب ، بل في كل فلسطين ، ويلم هو وسامعوه الماماً دقيقاً بعادات اليهود والسامريين ومعتقداتهم التلمودية من تطهير الآنية والاثاث والاستحمام ، وغير ذلك مما المحنا اليه اعلاه .

وتكفي حكاية اسحق السامري للتثبت من تضلعه من جغرافية فلسطين . فهو يتتبع رحلة حجاج يافا القاصدين الى اورشليم ، وتزولهم في مساء اول يوم على « جبّ في حقل يندوم على حدود مدينة فلسطين » (صفحة ٢٠٧) . حيث حوّل الانبا واكس الماء المر حلواً بقوة صليب من عود رمساه في قعره فلمع كالمصباح . فبنى المجاورون كنيسة للصليب كرسها الانبا كيرلس بنفسه (صفحة ٢٠٨) . وقد لحق اسحاق السامري بالحجاج ليأمن بصحبتهم على آنيته الكثيرة الثمينة ، لئلا يخطفها اللصوص اذا خرج بها وحده مع جماعته . فانتهز الفرصة وحملها بكاملها ليطهرها في العين التي بنى عليها يشوع بن نون مذبحاً لما قسم الارض على بني اسرائيل ، لان من غسل آنيته بهذه العين لا يعود بحاجة الى تطهيرها مرة اخرى (صفحة ١٩٥)

والواعظ يعرف جيداً الاماكن المقدسة : القبر والجلجلة واسماءها القديمة في العبرية واليونانية ، وحالتها قبل العثور عليها وبناء الكنائس عليها[1] ، وهيئة القبور القديمة ، ومغارة القبر ، والعجائب التي ظهرت عليه والتي حملت اليهود على رده . وما كانت عليه اورشليم بعد خرابها ، وقبل اكتشاف القبر ، وعدد اليهود في جوارها واسماء علمائهم السبعة ، وسلسلة اساقفة اورشليم قبل القديس كيرلس ، ومن كان منهم من غير اليهود . وقد صرّح ان هذه التقاليد ينقلها عن الآباء الذين سلفوه وان جزءاً منها حدّث به نيقوديموس ويوسف الرامي وبرنابا العبرانيين . ناهيك عن اشارته الى حفلات ارتفاع الصليب الفخمة ،

---

١) معجم اللاهوت لنجان في ترجمة القديس كيرلس ٣ : ع ٢٥٢٧

التي كانت تجري سنوياً في اورشليم ، والى تقاطر المؤمنين اليها من كل صوب، وهي قد فاقت حفلات تدشين الكنيسة اهمية ، انما لم تمحها بعد . كل ذلك يطابق عصر القديس كيرلس ، خاصة الحقبة الاخيرة منه ، التي أُلقي فيها الميمر ، كما سنبيّنه.

٥ ــ المكان

ونصوص الميمر وعنوانه تصرح انهُ أُلقي في عيد ارتفاع الصليب ، قبل الحفلة ، في كنيسة القيامة بجانب القبر المقدس.

ففي عنوان النسخة الحلبية ما حرفيته :

« نقرأ ميمر القديس كيريللوس رئيس اساقفة اورشليم قاله لعيد الصليب النير المقدس ... في كنيسة القيامة في ١٧ من شهر ايلول . وكان شعب الارثوذكسيين مجتمعين ليمجدوا الصليب المقدس »

وفي صفحة ١٨٧ من مخطوطة بكركي يشير الخطيب في مستهلّ عظته الى الجموع المزدحمة في كنيسة القيامة : « هوذا نرى الآن علوم كثيرة تتفاضل عن بعضها في هذا المكان الطوباني » . وفي صفحة ١٨٨ يقول « وهذا المجمع الذي اجتمع في هذا الموضع من كل كورة لكي يعاينوا مجده ويقبلوه اعني الصليب المخلص يسوع المسيح »

وفي صفحة ٢٠٥ يقول الواعظ ان الانبا واكس اشار على اسحق السامري بالذهاب الى كنيسة القيامة في اورشليم ، حيث يجد الجموع محتشدة والاب كيرلس : « لكن اذا اردت ان تكون كامل توم وامضي الى اورشليم واسأل عن كنيسة القيامة . فادخل اليها فانك تجد الاب كيرلوس هو هناك وجموع كثير من المؤمنين الذين اتو من كل كورة ليعبدوا الصليب المقدس لانه يوم ظهوره . وانت اذا مضيت اليه هو يعرّفك طريق الخلاص وتعاين قوة المسيح وصليبه » .

وفي صفحة ٢٠٨ يتابع القديس قصة السامري ويشير الى ازدحام الحاضرين وظهورهم بثياب العيد بقوله : « لما دخل اسحاق الى يورشليم سأل عن مسكنتي

انا كيرللوس فعرّفه شماس اني في كنيسة الصليب اصنع العيد ... فجاء فرأى مجدًا عظيماً وجميع الناس حاضرين بلباس حسن.»

وفي صفحة ٢١٤ يشير الواعظ الى قبر المسيح في كنيسة القيامة سائلًا: «اين وضعوا جسد المسيح . هوذا هو [كان] موضوع في قبره في هذه الكنيسة التي نحن نعيد فيها اليوم.»

وفي صفحة ٢٤٨ يشير ايضاً الى الكنيسة نفسها وحفلة ارتفاع الصليب التي تقام فيها ، واحتشاد الجموع لحضورها وحضور حفلتي العماد والمناولة اللتين كانتا تسبقان حفلة ارتفاع الصليب قائلًا: «والآن فلنكفّ ها هنا من القول ولنقرب الى الاهتمام بالمعمودية المقدسة والقربان في دفعة واحدة . لان الوقت (المعين لحفلة ارتفاع الصليب) قد اقترب . وايضاً من اجل تعب الذين اتوا الينا اليوم الى هذا الموضع المقدس ليسجدوا الاله عمنوايل يسوع المسيح وصليبه المقدس المخلص للذين يؤمنون به.»

كل هذه الشواهد تنطق صريحاً بان الميمر قد أُلقي في كنيسة القيامة باورشليم قبيل حفلة ارتفاع الصليب . فهل يعقل ان يُلفق ويُنسب زوراً الى القديس كيرلس الاورشليمي ؟ وما هي غاية المزوّر والملفق ؟ . لننظر في ذلك بعين الانصاف والنقد المجردة عن الهوى والكبرياء الفارغة.

١٤ — المؤلف

اذا رمنا الوصول الى معرفة مؤلف هذا الميمر علينا ان نسأل نصوصه عن جنسيّة صاحبه ومذهبه وأسلوبه وافكاره ، فنتدرّج من ذلك الى فحص نظام الميمر والعصر الذي وُضع فيه وتصريحاته بشأن صاحبه.

١ً — جنسيته

اولًا : هل هو قبطي ؟

ان ترجمة هذا الميمر في القطر المصري والعثور عليه ضمن مجموعة وُضعت في هذا القطر واتصلت من رهبان الاقباط الى موارنة لبنان ، واحتفاظ الاقباط بميامر أُخر موضوعة على ظهور الصليب ومنسوبة ايضاً الى القديس كيرلس

الاورشليمي ، تزيد الشك في ميمرنا انه مُلفّق مثلها من احد اقباط العصور الوسطى ، ومنسوب زورًا مثلها الى هذا القديس .

وكنا قد استشرنا في الامر حضرة المستشرق الاب القانوني جورج گراف الالماني ، من اكبر الواقفين على تآليف الكنيسة القبطية ، فدلنا على ثلاثة ميامر بهذا الموضوع ، احدها محفوظ في مكتبة البطركخانة القبطيّة بالقاهرة تحت رقم ٧٠ صفحة ١ — ٢٤ . وهو مخروم ومنسوخ سنة ١٥٨١ م اي ان نسخته احدث عهدًا من نسختي ميمرنا المرتقيتين كما مر بك ، الى سنة ١٥٥٧ و١٥٥٨ . والآخران مصونان في المتحف القبطي بهذه العاصمة تحت رقم ٣٠ من مجموعة الكتب الطقسيَّة ، فكلفنا حضرة صديقنا الاب العالم بولس سباط استنساخهما فلبَّانا . انما لم يفلح في الحصول على نسخة من الميمر الاول . وسألنا ايضاً بهذا الخصوص الاب يوسف البلجكي اليسوعي ، احد مشاهير المشتغلين بتآليف الآباء القديسين وتراجمهم ، فدلنا على ميمر في خزانة مدينة ليبسيك الخطية بالمانية محفوظ تحت رقم ٢٤٢ وتكرم الاب گراف بنسخ الفقرة الاولى منه . فاذا هي :

« ميمر قاله القديس كيرلس . . . يشرح فيه كرامة عود الصليب المقدس ووجوده . في اليوم العاشر من برمهات . قال المجد لله الواحد ذي الحكمة والصنيع العجيب . الجابد علينا بتجسد الابن الحبيب »

ونبهنا حضرته الى ان هذا الميمر ملفق ومنسوب زورًا الى القديس كيرلس الاورشليمي . وقد وجدناه مطابقاً للميمر الثاني من المتحف القبطي ، ويدور مثله على ظهور الصليب على يد هرقل الملك سنة ٦٢٩ ، اي ثلاثة قرون بعد القديس كيرلس . وهو اقرب الى الرواية منه الى العظة ، اذ ان بطلته فتاة قبطية حسناء سباها الفرس ، فدلت الملك هرقل بعد انتصاره عليهم ، على المكان الذي خبأوا فيه الصليب . وهو غير موضوع ميمرنا فلا حاجة للاسهاب فيه .

اما الميمر الاول من خزانة المتحف القبطي فموضوعه ، مثل ميمرنا « ظهور الصليب على يد البار قسطنطين وامه هيلانة » . بيد انه حديث العهد مسجع العبارة وُضع ليقرأ في السابع عشر من شهر توت . واليك اوله :

« المجد لله الذي خلقنا نحن المؤمنين باشرف المواهب السنية وانعم علينا بجوده وكرمه بأعظم العطايا الالهية . وجعل لنا موضعاً على الارض شبيهاً بالاماكن السمائية . . . »

تكفي هذه الديباجة للتثبت من حداثته . وهو في مقدمته ، التي تشغل الصفحات التسع الاولى منه ، مختلف عن ميمرنا اختلافاً كبيراً . وقد سقطت منه قصص اسحق السامري واكلاوبا وبنت يائيروس وغيرها . بيد انه ، في الصفحات العشرين الباقية يتفق مع الاساطير السريانيَّة ، واحياناً مع ميمرنا ، مما يبعث على الظن انه منقول عنها وان واضعه انتقى بعض التفاصيل من ميمرنا . فهو يروي حكاية ردم اليهود للقبر بزبالاتهم مدة مئتين وثلاثين سنة ، كانهم تابعوا الردم بعد خرابها سنة ٧٠ م . وهذا يخالف ميمرنا كما رأيت . انما يوافقه في ما رواه عن رؤيا قسطنطين لعلامة الصليب بهيئة نجوم زاهرة ، وانه عرف من يوسيفوس الجندي الشيخ الموقر (وهو في ميمرنا شاب يُدعى يوسيكينوس) انها للمسيح ، فصاغ صليباً من ذهب رفعه على علم ونقش مثله على تاجه وعلى آلة الحرب فظفر باعدائه ، الذين لا يسميهم قال : « وأشرقت بشعاعه الدولة اليونانيَّة » ، واعتمد في السنة السابعة من ملكه من يد سيبطرس بابا رومية[1] . وقصد الى القدس مع والدته هيلانة وسأل اليهود عن مكان الصليب ، فانكروا في بدء الامر ثم حولوه على يهوذا الذي دله على تل الجلجلة . فامر اليهود بتنظيفه (هنا ورقة مخرومة كما في نسخة حلب) فكشفوا عنه في السادس عشر من توت . وعُرفت حقيقته من وضعه على الميت ، مما يخالف ميمرنا . ثم تنيح الابا يوساب اسقف اورشليم (لعله « يوسف » ميمرنا) وكرّز بعده يهوذا ودعي كيرياكوس (وهذا يخالف ايضاً ميمرنا ويوافق الاساطير السريانيَّة) . وبعد ذلك اجتهدت الملكة في طلب المسامير فاكتشفها الابا كيرياكوس وصاغتها لجاماً لركوب ابنها ، كما في الاساطير السريانيَّة . فانت ترى ان واضع الميمر القبطي قد اخذ كثيراً عن هذه الاساطير وبعض الشيء عن ميمرنا ، وانفرد ببعض المعلومات ، مما يدل على انه استقى من هذا وتلك ومن غيرها .

ولا بد انك قد استغربت قوله عن « اشراق الدولة اليونانيَّة بشعاع

---

١) لعله يريد القديس ميلشيروس الاول الذي جلس على كرسي رومية في عهد قسطنطين اي من سنة ٣١٤ حتى ٣٣٥ ، مخالفاً بذلك الاساطير السريانية التي تدعي ان البابا اوسايوس اسقف رومية (٣١٠–٣١٤) هو الذي عمّده .

قسطنطين »، والاقباط كانوا يكرهون اليونان كرهاً عظيماً. وقد استسلموا للياقبة ديناً، وللعرب دنيا، ليتخلصوا من استبداد رؤسائهم وامبراطرتهم.

وفي هذا الميمر يرد اسم اورشليم بصيغته اليونانيَّة « يورشليم » فهل هذه دلائل تنقل اصله عن اليونانيَّة، ونقله رأساً بعض التفاصيل عن ميمرنا، والبقية عن الاساطير السريانية، فيكون احدث عهداً من ترجمة ميمرنا عن السريانية ! نحن نرجح ذلك، انما لا نعني به ان مؤلف ميمرنا قبطي الاصل.

اولاً : لانه مترجم كما قلنا عن السريانية، ولا معرفة للاقباط بهذه اللغة.

ثانياً : اذا كان مترجمه سريانيًا فمؤلفه غير يعقوبي اي غير سرياني وغير قبطي. لان ليس فيه ما يشتم منه رائحة البدعة اليعقوبية، كما سنبيّنه في ما يلي.

ثالثاً : يشير الميمر في صفحة ٢١٥ الى نمو الزرع بواسطة مطر السماء. مما يدل على انه وُضع في بلد تعتمد على مطر السماء. وهو غير الحال في وادي النيل حيث يروى الزرع بماء النيل، ولا مطر يهطل الا نادرًا. واليك العبارة: « كمثل انسان حكيم يمضي الى حقله وينقي منه السنط[1] والشوك الذي يطلع فيه. وبعد ذلك يزرع فيه الزرع بيد سمحة ويحرثه بالمحراث وينظر الى زمان الشتاء ليأتي المطر عليهم ويطلعوا وينموا ويعودوا زرعاً صالحاً من اجل الريح الندى الذي نزل من السماء من عند الله ».

ثانياً : هل يوناني ؟

سنبين في ما يلي ان الميمر قد وُضع في بلاد مسيحيَّة يحكمها ملوك مسيحيون. فيجب ان نؤخر وضعه الى ما قبل الفتح الاسلامي للبلدان الشرقيَّة، وهذا يفتح باباً للسؤال هل مؤلفه احد يوناني العصور الوسطى. لاسيما ان الدلائل عديدة كما قلنا على اصله اليوناني. فنجيب ان ذلك لا ينطبق على يوناني القطر المصري لان حكمهم حكم الاقباط في خضوعهم للاسلام بعد الفتح. بقي علينا ان نعرف هل هو تأليف احد يوناني الدولة البيزنطية التي لم تسقط في ايدي الاتراك الا اواسط القرن الخامس عشر.

---

(١) قلنا سابقًا ان استعمال المترجم لهذه الكلمة يدل على ترجمة الميمر في القطر المصري، لا على تأليفه في هذا القطر.

لهذا الاعتراض بعض الوجاهة ، انما ليس لمقدّميه برهان عليه . ولا ينطبق على الجمهور الذي كان حاضراً سماع الميمر ، وهو ، كما بيّنا ، مسيحي فلسطيني محاط بعناصر أريوسية ويهودية ووثنيّة . فالاريوسية انطفأت في اواسط القرن الخامس ، وكانت الوثنية قد اندثرت قبلها في البلدان المسيحية ، خاصة القسطنطينية . ولم يكن لليهود في هذه العاصمة ، في العصور الوسطى ، الشأن الذي يشير اليه صاحب الميمر ولا الخطر الذي يخافه من تعاليمهم وتقاليدهم .

فضلاً عن ان الميمر يصرّح ، كما رأيت ، انه تُلي على جمهور مجتمع حول القبر المقدس في كنيسة القيامة باورشليم . وليس فيه ما يؤيد آراء المنشقين من اليونان ، الذين انفصلوا اولاً عن كنيسة رومية بعد القرن التاسع ونهائياً بعد اواسط الحادي عشر . ولو كان لاحدهم لقاوم صراحةً بدعتي النسطورية واليعقوبية . نعم ان صاحب الميمر غير يعقوبي وغير نسطوري ، كما سنبيّنه من اقواله ، انما جاءت تصريحاته في ناسوت المسيح ولاهوته مضادة عرضاً لهؤلاء المبتدعين . فهو لا يقصدهم ولا يشير اليهم البتة ، بخلاف الاريوسيّين . وانك تجد في عظات القديس كيرلس تصريحات واضحة في شأن الطبيعتين والمشيئتين[1] ، مع انها قيلت في سنة ٣٤٨ قبل ظهور اليعاقبة والنساطرة بقرن ونيّف . نلفت النظر الى ذلك لئلا يخيّل الى احد ان الميمر وُضع بعد القرن الخامس .

٢ً — مذهبه

ان واضع الميمر كاثوليكي اي انه غير تابع لاحدى البدع التي نشبت في الكنيسة الشرقية وفصلتها عن الكنيسة العامة : اي الاريوسية ، والنسطورية ، واليعقوبية ، او اليونانية . وقد مر بك انه ليس باريوسي ولا يوناني فلعله نسطوري او يعقوبي .

اولاً : ليس بنسطوري . ان حملته على الاريوسيّين قد تحمل البعض على نسبة الميمر الى احد النساطرة اعدائهم . على ان تصريحه باتحاد لاهوت المسيح مع ناسوته يبدّد هذا الظن . فقد جاء في صفحة ١٩٢—١٩٣ : « هذا الجسد اتحد

١) راجع معجم اللاهوت لفاكان مج ٣ ع ٢٥٢٦

به مع اللاهوت . . . والاله متحد به داخله وخارجه » وفي صفحة ٢١١ « هذا الجسد الذي اخذه من مريم العذرى ولبسه وجعله واحد مع لاهوته » . فضلاً عن انه ذمّ في صفحة ١٩٧ السامريين لادعائهم بان المسيح لم يصلب بل ابدل بنبي آخر وهو ما اخذه النساطرة عن باسيليوس المبتدع[1] ولقنوه نبي الاسلام .

ثانياً : وهو ليس بيعقوبي لانه يسلم ضمناً بطبيعتي المسيح الالهية والانسانية بقوله في صفحة ١٩٢ « ان الملك (اي المسيح) جاء الى عبيده بهوى قلبه . . . ولبس السلاح الذي حارب به ذلك الخارجي اعني هذا الجسد الذي اتحد به مع اللاهوت . وذلك الجسد من غير زرعة بشر وعمل الاشياء كلها مثلنا ما خلا الخطيئة . وهو لم يخطئ قط ولم يوجد فيه دغل فساد والاله متحد داخله وخارجه » .

هذه التعاليم جاءت في هذا الميمر عفواً . فصاحبه ليس بنسطوري ولا يعقوبي . انما لا يحارب هؤلاء علناً . ولا يعقل كما قلنا ان يكون واضعه عاش بعد ظهور هاتين البدعتين ويكتفي بمحاربة الاريوسيين فقط ويمنيهم وحدهم بالمراطقة دون ان يتعرّض للبدعتين اللتين نشأتا لمقاومة ضلال نسطور ، او يدافع عن احداهما ، فنعرف انه من اتباعها .

ثالثاً : مركلوس الانقيري . في الحقبة الاولى من القرن الرابع ظهرت ضلالة مركلوس الانقيري الذي انكر ازلية ملكوت المسيح ، بدعوى ان ملكه ابتدأ فقط حين تجسده . وقد ذهب تلاميذه ، اخصهم فوتينوس ، الى ابعد من هذا ، فانكروا ازلية المسيح في جوهره والوهيته وملكوته . تخبطت النصرانية ردحاً من الزمن في شراك هذه البدعة ، وكاد القديس اثناسيوس الاسكندري يعلق بها لصداقته مع مركلوس المذكور ، فحطه مجمع الاساقفة في صور سنة ٣٣٥ عن كرسيه وحرم صديقه مركلوس . وقد جاهد عبثاً امبراطورا الشرق والغرب في سنتي ٣٤٢ و٣٤٣ للتوفيق بين المبتدع المذكور والرأي الكاثوليكي . ومات مركلوس سنة ٣٧٤ وآل تطرّف تلاميذه الى اضعاف شأنهم وزوال خطر بدعتهم في اواخر القرن الرابع[2] ، وهي الحقبة التي

١) راجع مجموعة مين في تأليفه على عظة القديس كيرلس الرابعة رقم ٣٠ ع ٤٦٧

٢) راجع في هذه البدعة معجم ڤاكان ومنجنو : مج ٩ قسم ٢ ع ١٦٦٥

نرجح القاء الميمر فيها.

اوردنا ذلك اولاً لتبيان غرض صاحب الميمر من استهلاله بآية المزامير « ملك الرب » وايراده غيرها من الآيات المثبتة ملكوت المسيح ، ثانياً لنلقي في كفة نسبة الميمر الى القديس كيرلس برهاناً يزيد في ترجيحها. واليك بعضها:

« ملك الرب فلتتهلل جميع الامم » (صفحة ١٨٧) . « أترى هو منتظر الى زمان ليملك . اليس الملك كله له والربوبية من الابتدا. كما قال دانيال النبي ان مملكته دائمة الى الابد وربوبيته من البحر الى البحر ومن النهر الى اقصى المسكونة . فان كنت تريد ان تعلم ايها المناصب ان المسيح ملك الملوك فاسمع . . . الخ » (صفحة ١٨٨)

الا تراه يعني مركلوس بلقب « مناصب » وانه يرمي الى الردّ عليه بالآيات المذكورة ؟ ونحن نعلم ان هذه البدعة كادت تنطفئ في اواخر القرن الرابع فلم يعرها صاحب الميمر الا قليلاً من الاهمية . وهذا دليل على ان الميمر ألقي في هذه الحقبة ، اذ لا داعي لتفنيد ما لا يقول به احد.

ولما كان هذا الميمر خالياً من رائحة كل البدع الشرقية ، حقّ لنا ان نسأل الذين يعارضون في نسبته الى القديس كيرلس: ما هي غاية واضعه من هذا التزوير ؟ لو انه دسّ فيه ادنى سم هرطقة ام رأي شاذ ، لادركنا انه اقدم على هذا التزوير ليتسنى له تسميم عقيدة المسيحيّين بسهولة دون ان يتخذوا حيطتهم ؛ اذ انه ينسب آراءه الفاسدة الى قديس قديم من اشهر علماء الكنيسة واوسعهم حجة. اما والواقع غير ذلك فما هو غرضه من اخفاء اسمه ؟ او جرّدنا هذا الميمر من ثوبه المستعار وعبارته الركيكة الغريبة ، لالفيناه من أجمل المواعظ التي ورثناها عن الآباء الاولين معنى ومبنى ، وأغزرها فوائد تاريخية وتقاليد ثمينة . فهل حمل فرط التواضع صاحبه على التستر وراء هذا القديس ؟ ولكن ما قول اصحاب هذا الرأي في رجل صالح ساعٍ في طريق الكمال المسيحي يرتكب الكذب والتلفيق والتزوير ، فيسند اقواله الى احد اعاظم معلمي الكنيسة ويصفها على لسانه بصورة المتكلم « انا كيرلس . مسكنتي انا الحقير كيرلس » ، وما شاكل ذلك !

(للبحث صلة)